مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله...

وبعد

قال تعالى فى كتابه الكريم: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾[1] يقول المفسرون: معنى الآية أى ظهرت البلايا والنكبات فى بر الأرض وبحرها بسبب معاصى الناس وذنوبهم.

والمراد بالفساد فى الآية الشريفة الجرب وكثرة الحرق والغرق، ومحق البركات، وكثرة المضار بشؤم المعاصى من الناس، أو بكسبهم إياها[2].

يقول الإمام العلامة ابن كثير[3]: أى بان النقص فى الزروع والثمار بسبب المعاصى لأن صلاح الأرض والناس بالطاعة.

وتسبيب هذا الفساد البرى والبحرى وتبريره كما أفصحت الآية الشريفة وصرحت مرجوع ومعزو إلى ما كسبت أيدى الناس واكتدحت.

وكان فى إمكان القدرة الإلهية غير المحدودة دفع هذا الفساد... لأن الله تعالى إذا أراد شيئاً لا يمكن أن يمنعه شىء... ولذلك كان فى ترك هذا الفساد حكمة مقررة لا سبيل لإنكارها أو جحدها وهى أن الله أذن فى السماح له للانتقام من المفسدين كفاء إفسادهم، ولقاء عيثهم وتخريبهم لمخلوقات الله، فهم - أى المفسدون - المضرور الأول بما صنعوا من إفساد وتخريب. وعلى نفسها جنت براقش.

---

(١) الروم ٤١ .

(٢) انظر تفسير البيضاوى (١٠٦/٢) بتصرف .

(٣) انظر مختصر ابن كثير (٥٧/٣) وتفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن (٤٠/١٤) وجامع البيان للإمام الطبرى (٣٢/٢١) .

قال الإمام ابن قتيبة ـ رحمه الله ـ فى تفسير هذه الآية: أى أجرب البر، وانقطعت مادة البحر بذنوب الناس[1].

إن الإنسان مأمور بالعمل الطيب الصالح البنّاء الذى ينطوى على الخير والعمران لهذا الكون، لكنه يعمد إلى الإفساد وتقويض هذا العمران مخالفاً أمر الله تعالى الصريح الذى يقول فيه:

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾[2].

قال المفسرون: أى ولا تفسدوا فى الأرض بالمعاصى، بعد إصلاحها ببعث الرسل إليكم.

ولئن كان هذا تأويل مخصوص إلا أن عموم النص قائم العبرة، فالعبرة هى بعموم النص لا بخصوص السبب، كما كان مذهب السلف من الصحابة والتابعين وجمهرة أهل العلم[3].

وإذا كان التلوث هو مشكلة العصر الكبرى[4] الجديرة بالتقويم والدراسة الجادة، والمتابعة الصارمة والمسارعة بإيجاد الحلول الحاسمة، فإن الإسلام كان منذ البداية قد وضع الضوابط ولفت الأنظار إلى ذلك بادى الرأى، وحذر من هذا كله منذ أربعة عشر قرنا من الزمان.

ثم إن السنة النبوية فى صرف عنايتها إلى الاهتمام بالإنسان وصحته وحياته البدنية والنفسية ـ إلى جانب العناية بالصحة الروحية له ـ متمشية مع تعاليم القرآن الكريم، وذلك فى وجوب الحرص على النظافة والنقاء والطهارة للروح والبدن على حد سواء.

إن الفقة الإسلامى فى أبواب الطهارة والغسل والوضوء، والتعاليم الوقائية لصيانة صحة الإنسان وقائياً لهى من أهم الدلائل، وأقوى الإرشادات على عظمة هذا الدين، دين

---

(١) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٣٤٢ .

(٢) الأعراف ٨٥ .

(٣) راجع باب (عموم النص وخصوص السبب) فى مظانه من كتب الأصول.

(٤) قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الكهف : ١٠٣، ١٠٤]وفى الآية إلقاء المسئولية كاملة على أهل الضلال من المفسدين من أرباب الحضارة الحديثة المزعومة، التى أثمرت فى جانب، وأفسدت فى جوانب عديدة.

القيمة والمحجة البيضاء المستقيمة التى يحظى بسلوكها السعداء، ويجافيها وينبو عنها الأشقياء المقموعون.

إن الطب الوقائى يسهم إسهاماً قوياً مباشراً فى دفع غائلة الأمراض قبل وقوعها، وقد كان العرب قديما يقولون فى مضروب أمثالهم المشهورة:

«تضرع للطبيب قبل أن تمرض»

أى استشر الطبيب وافزع إليه قبل نزول المرض بك. وهذا قول فى غاية الروعة وقوة الدلالة... وهذا مقيس على معنى المأثورة الجميلة: «تقرب إلى الله فى الرخاء يحفظك فى الشدة».

ثم إن المستحدثات الرائعة فى **علم الجيولوچيا، ولا سيما الجغرافيا الطبيعية**، ووسائل الاستشعار عن بعد والتقاط الصور الفضائية للفضاء الكونى البعيد وتطور وسائل دراستها وتقويمها، وتحليل المكونات والعناصر المادية على الكواكب الأخرى - كل هذا قدم لنا كثيراً من المعلومات والفوائد التى كانت مستورة ومحجوبة عنا.

ولولا تكنولوچيا الاستشعار من بعد، وتحليل صور الأقمار الصناعية لما أمكننا اكتشاف التآكل الحادث المدمر فى طبقة الأوزون... إننا فى عصر الكمبيوتر وعصر المعلومات، ولا يمكن أن نقبل موقف الجمود إزاء هذه الثورة العلمية الشاملة من غير أن يكون لنا منها نصيب الأسد، والقدح المعلى، وذلك باحتلال مركز الصدارة والتفوق والتبريز.

فى هذه الدراسة نقدم ما يسر الله لنا به من علم نافع قد أفدنا منه، ووجدنا لزاماً علينا أن ننقل هذا إلى القارىء الكريم وفاء وأداء لحقه علينا، وقبل ذلك وبعده وفاء لحق الله تعالى الذى أمرنا بالمعروف، وعدم كتمان العلم.

فما كان من علم نافع فهو من فضل الله تعالى وحده، وما كان من تقصير أو نسيان فهو من الشيطان ومنا، وبالله التوفيق، ومنه الاستعانة وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم والحمد لله رب العالمين.

القاهرة فى أول نوفمبر سنة ١٩٩٥م

السيد الجميلى